الاطفال ضعاف العقول

الناحية المهجورة من نواحي الاصلاح والتهذيب — حاجتنا الى المباحث العلمية
معاهد ضعاف العقول وما ينبغي ان تكون عليه

فتح الله محمد المرصفي
مفتش التعليم بمصلحة السجون السابق وعضو رابطة الاصلاح الاجتماعي

عني الاستاذ الدكتور . أ . د . كلاباريد الخبير الفني الذي ندبتهُ وزارة المعارف العمومية في الماضي القريب ، ببحث وتقدير حالة التعليم في جميع مراحله في المملكة المصرية كما عنيت الوزارة بنشر تقريره المشتمل على نتيجة ابحاثه واختباراته القيمة مقرراً فيهِ ما فطر عليهِ الشاب المصري من الذكاء مع موازنته بذكاء امثاله في الامم الغربية وانهُ يوازي ذكاء نظيره في مختلف البلدان الاوربية بصفة عامة . الاَّ انهُ من ناحية اخرى اشار الى التباين العظيم في الفرقة الواحدة بين جميع التلاميذ مع ما هم عليهِ من السن ومستوى الذكاء . كما اكد انهُ يستحيل تجانس فرقة واحدة تجانساً مطلقاً . الاَّ ان التباين بين تلاميذ المدارس المصرية تخطى الحدود المألوفة . . وقد عزا ذلك الى عوامل اهمها نقص طرق اختبار التلاميذ حين توزيعهم على فرق الدراسة . وثانيها عدم وجود فرق خاصة للاطفال المتأخرين والشواذ الذين يتأثرون دروسهم مع الاطفال العاديين جنباً الى جنب على انهُ قرر ان المصلحة تقضي بأن تنشأ في الاوساط التابعة للمدن او المدارس العامرة بالتلاميذ فرق للضعفاء الذين تقل منهم العقلية عن مستوى السن العادية المناسبة للفرقة وأشار إلى أن من امثال هؤلاء عدداً غير قليل في شدة الحاجة الى العناية الخاصة . ومن المؤكد ان تقدمهم وسنا بهم لاخوانهم خير من القضاء عليهم إلى أن قال — « واذا ضوعف الشذوذ بفساد في الاخلاق كنزعته إلى السرقة والاجرام فمن المحتوم حجز المصابين بهذه الآفات في بيوت خاصة باصلاح الاخلاق « معاهد الاصلاح »

وهذا ما رغبنا في بحثه وتوجيه الانظار الى الناحية المهجورة من نواحي الاصلاح والتهذيب في عصرنا لطول خبرتنا وممارستنا العمل مدة لا تقل عن ثماني عشرة سنة في خدمة الاحداث الجنح وصغار المجرمين في مدارس إصلاح الاحداث التي تجمع أطفالاً شواذ من جميع نواحي الدولة مع اختلاف في القوى العقلية وانحطاط في المستوى الخلقي وتباين في الجريمة وضعف في الصحة

على ان اقصى ما يفعله القائمون منا في بحث حالة الاحداث العمل وصغار المجرمين ان يقرأوا شيئاً عن نتائج ما قام به الباحثون ووضعوا من اجله المؤلفات القيمة في مختلف البلدان الاجنبية ولاسيما في اميركا « الولايات المتحدة الاميركية » والمجلترا التي تعنى جد العناية بالاصلاح فجعلت في طليعة طرائق اصلاحها انشاء المباحث العلمية واعدت لها العدة وواصلت ابحاثها على اساس الغرض الذي من اجله انجهت الفكرة

***

وليس من المستطاع ان نقرر شيئاً نرغب في اصلاحه قبل بحثه بحثاً مؤسساً على الاصول الفنية من وجوهه المختلفة من حيث فحص العوامل والبواعث النفسية والعقلية والصحية التي دعت بالحدث الى الاندفاع في الجريمة حتى يمكن والحالة هذه تقرير العلاج فالتدقيق « ان الحكم على الشيء فرع عن تصوره » فلا بدّ من أن يوجد بمصر طبقة من الباحثين المصريين الاخصائيين في مختلف الابحاث الفنية تكون مهمتهم إجراء الابحاث والتجارب وجمع المشاهدات وعمل الاحصائيات وفحص الاطفال فحصاً دقيقاً يمكن به تقرير العلاج . عندئذٍ يمكن أن تسن نظم الاصلاح ومقاومة الجريمة سواء أكانت بوسائل الوقاية أم بمعاهد الاصلاح التي يجب أن تكون على أسس مُستَنبَطَة من نتائج هذه الابحاث

أما ما نفعله الآن فهذا في نظري بل في نظر الذين يتصدون لإصلاح الأمر العام والحالة الخلقية ليس إلاّ تقليداً ومحاكاة

إذا ما تقرر ذلك وجب على الهيئات العامة والجامعات المفكرة أن تنشط إلى العمل بهمم دائبة على إنشاء أمثال هذه المباحث حتى يمكننا أن نقول اننا نأخذ بأسباب طرائق العلاج من الوجهة الفنية العملية الصحيحة

وهنا يجب أن نشير الى أقرب الحوادث عهداً عن جنايات سيئة قد يمر القارىء بها مرّ الكرام « الاّ انها بادرة قطور سيء في نفسية النشء » أو « صورة من الوحشية » أو « ظاهرة إجرامية » عندما أشارت اليها الصحف اليومية في تعليقها على هذه الحوادث الواقعة . فمنها : « أن قد اشتر غلامان على ثالث وصبا عليه البنزول ثم احرقاه وجعلا يتلذذان بصرخاته المتوالية في النار المتأججة — كما حدث أن غلاماً دس « حمض الفنيك » في الصهريج الذي يشرب منهُ تلاميذ مدرسته . . . وفي مدينة المنصورة تسكن أسرة كريمة في دار يصعد اليها بسلم من الخشب: وقد حدث ثلاث حرائق في هذه الدار الجميلة في أيام متتالية وقد ادركها السكان والخدم ورجال المطافىء وشموا أخطارها واسفر التحقيق عن ادانة خادمة في الرابعة عشرة من عمرها حامت حولها الظنون القوية فاعترفت بفعلتها الشنعاء كما اعترفت بسابق جنايتها وأنها فعلت ذلك إعجاباً

بمشاهدة رجال المطافىء لابسين خوذاتهم اللامعة ونشاطهم واقدامهم الذين ملكا عقلها فأغرياها باحداث هذه الحرائق لمشاهدتهم أمامها

كما اعتقل البوليس مساء ٩ يوليو سنة ١٩٢٨ ثلاثة صبية لا يزيد عمر أكبرهم على عشر سنوات وقد ضبطوا وهم يضعون خرقة مبلة بالقاز ومشتعلة تحت محل كهربائي في شارع توفيق بالقاهرة ولما قبض عليهم البوليس وأجرى التحقيق معهم بوساطة النيابة اعترفوا بجريمتهم »

وإن المقام ليضيق بنا اذا ما حاولنا أن نأتي على كثير من حوادث امثال هؤلاء الاطفال وفدح جرائمهم . وحسبي أن هؤلاء ليسوا إلا في مصاف ضعاف العقول الذين يجمل بنا أن نبادر الى علاجهم عقليًا وإلا كان خطرهم أشد تأثيراً وأسوأ نتيجة ، ولنا نتخذ من أغاليطنا دروساً للاصلاح القومي المنشود وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

فاذا كنا بالأمس في دور من الشك أدى بنا إلى البحث فانهُ يجدر بنا أن ننتهي اليوم الى معرفة الحقيقة وإذا نحن وفقنا إلى فحص الحالات العقلية والنفسية والجسمية لأمثال أحداثنا الضال وصغار المجرمين فانهُ يتبين لنا صدق قرارنا عن كثيرين من الاحداث في حالات غير طبيعية . وانا في قرارنا هذا لجادون فان ما عليهِ أطفالنا المشار اليهم من المؤثرات والاوصاف لا تخرج عن دائرة ما قرره علماء النفس والباحثون . فمن ذلك ان يكون العقل بحالة عصبية ولو أنهُ لم يكن بالمعنى المقصود منها أو أن يكون كثير النسيان نزّاعاً إلى العصيان جنوحاً إلى عدم الطاعة فاذا ما كانت حالتهُ شديدة عمد إلى الخداع والتمرد والمربدة فيكون بذلك شقيًا مستمرًا يركن الى السرقات كاذباً مارقاً وتزداد هذه الحالة الشريرة وضوحاً وجلاء كلما تقدم الى سن البلوغ فيجنح الى اقتراف الآثام

وانقائمون بهذه الابحاث ينتقدون بوجوب تقرير الاسباب الباعثة للطفل المجرم على الاجرام في هذا الاعتقاد واليقين وَضْع الحد في نصابه من ناحية الحدث وفي ذلك حفظ لكيان الهيئة فأطفالنا ضعاف العقول ليسوا الا بالاطفال العاديين مع ما هم عليهِ من الظواهر والمؤثرات على أنهم في غير المستوى العقلي العادي بدرجات تختلف باختلاف تقدير ذكاء كل طفل منهم

ولا يفوتني أن أشير الى تلك الظواهر التي لاحظناها ودلتنا عليها الخبرة بين هؤلاء الاحداث وكانت ولا تزال تابع لازمة لتلك الامراض المزمنة التي أصابتهم قبل انتظامهم في مدارس اصلاح الاحداث والتي عنيت ولا تزال تعنى بعلاجها بكل الوسائل الفنية الممكنة فمن هذه الظواهر :—

١ — عدم الانتباه الى الدرس رغم ما لذلك من أساليب في التعليم

ا — الميل الى النوم

ب — والاشتغال بغير الدرس

٢ — ضعف الذاكرة الى حد أن أمثال هؤلاء لا يحسون ما يلقى عليهم في نفس الدرس رغم التكرار
٣ — الركون الى الكذب
٤ — الحيد الى حد الاستسلام حتى الى حدث صغير
٥ — البطء المتناهي في الاجابة

وفي ينبغي انهُ اذا ما كانت قيادة هؤلاء الاحداث الى النظام والعمل بقوة عاطفة مشبعة بروح الشفقة والحنان في معهد خاص لاستطعنا ان نعد منهم مواطنين عاملين الى حدٍّ ما ولاستطاع الواحد منهم أن يعمل في الهيئة تحت الاشراف المباشر على ما هو عليهِ من الانحطاط الفكري. والحق يقال ان « الدكتورة ماري منتسوري » لها فضل السبق فيما ذهبت اليهِ من طرائق علاج أمثال هؤلاء الاحداث فلقد نقضت عليًّا نظرية « الطفل » التي على أساسها تقوم مدارس الاطفال والتي لم تكن الاَّ نظرية خيالية « كما قررت » على انها أقامت نظريتها على دعائم مرافبة كل طفل وبحثه منفرداً فكان لهذه النظرية المثل الاعلى في علاج الاطفان وتربيتهم لا سيما ضعاف العقول منهم

ولقد اتضح جليًّا كما استقرَّ عليهِ رأي الباحثين ان تعليم هؤلاء الاطفال « ضعاف العقول » ليس من المهم في شيء لمستقبلهم الصحي والخلقي والنفسي خيرٌ من الاهتمام بتغذيتهم وتعليمهم « فان أهمية التربية عقلية كانت او نفسية مقدمة على أهمية غيرها والواجب أن يقيمها التعليم لا أن تتبعهُ » (انظر التقرير العام للاستاذ الدكتور كلاباريد ص ٢)

***

على أننا اذا ما قابلنا نتيجة امتحان ضعاف العقول في المطالعة مثلاً بنتيجة أضعف الاطفال من العاديين في الفرق الاخرى اتضح لنا جليًّا انهُ حتى المتقدمين من الفرق الراقية من بين أحداثنا المشار اليهم لا يكونون متفوقين على من يكونون ضعفاء في « المطالعة » في الفرق الاولى من المدارس العادية

وأن ما علينا من التوجيهات نحو أمثال هؤلاء وما يدعونا اليهِ البحث وتقرير ما ينبغي أن يكون عليهِ النظام المدرسي الجيد يجب ان تقدر ما يلزم لكل من هؤلاء ضعاف العقول وما هو في حاجة ماسة اليهِ

ولا وسيلة لهذا أنجع من أن نبادر الى علاجهم علاجاً عقليًّا في معهد أقرب ما يكون شبهاً بمستشفى الامراض العقلية لا في معهد تأديبي

ما ينبغي ان يكون عليه معاهد ضعاف العقول

وانهُ ليجاش صدري وجوب العمل على انشاء امثال هذه المعاهد عصر لنا ما لها من جليل الآثار وعظيم النتائج التي نجلت في مختلف البلدان الراقية التي عنيت بشأن أمثال هؤلاء الاحداث ضعاف العقول

الغرض الرئيسي — المرظفون

ان من أوليات أغراض انشاء مثل هذه المعاهد ان تكون أداة علاج عقلي باعث للحياة العملية الشريفة في نفوس الاطفال عاملاً على تمويدهم ضبط النفس بكل الوسائل المستطاعة

وتحقيقاً لهذه الغاية يتعين ان يكون في مقدمة الاصلاح بهذا المهد العمل على علاج الاطفال عقليًا بوساطة اخصائي في الامراض العقلية يعاونهُ طبيب خبير في علم النفس يعاضدهما عن كثب مدير المهد الذي يجب ان يكون حائزاً للمؤهلات الفنية ذا تجارب واسعة وشخصية بارزة يقدر المسؤولية حق قدرها كفيلاً بتنفيذ ما تشير اليه طرق العلاج وان يتصدى للتعليم فيه مدرسون حائزون للمؤهلات الفنية العلمية وعلى جانب عظيم من الخبرة والحزم وسمو الاخلاق ليكونوا قدوة حسنة ومثلاً عالياً

مناهج التعليم والاشغال اليدوية

١ — نرى ان يكون الاهتمام بالاشغال العملية قسطاً وفيراً من التكوين من حيث : — الحادثة — اللعب — العمل — الخط — الرسم — الصوت «الغناء»

٢ — كما للاعمال العقلية بمقدار ما تتسع لهُ مداركهم وفقاً لرأي الاخصائيين ممن يتولون علاجهم من حيث القراءة والكتابة والحساب

٣ — الاشغال اليدوية — يجب ان تكون متنوعة الاغراض الى حد ان تشبع رغبات الاطفال مع ما يتفق وحالتهم العقلية من حيث السهولة والتشويق . على اننا نشير اذا ما صادف هذا قبولاً بان يأخذ بالاعمال الآتية

١ — للذكور : فلاحة البساتين — الزراعة — صنع الاحذية — الخياطة — النجارة — النسج — صنع السجاد (الطنافس) — صناعة الجلود — عمل الفراجين — عمل السلال — الكراسي القش

٢ — الاعمال الآتية ألصق للبنات وأليق بهن — الكي — التسيل — فلاحة البساتين —

النسج — صنع السجاد (الطقاقس) — اشغال الابرة — صنع الدنتلة — الرفي — الجلود — عمل السلال — عمل الفراجين

الزمن الدراسي وعلى وسط عمره التعريس بالفرد:

من المقرر ان زمن انتباه الطفل قصير محدود ولما كنا نعالج طائفة من الاطفال ضعاف العقول نرى ألاّ يزيد الزمن الدرامي في اليوم على خمس ساعات على ان تكون مدة السنة الدراسية لا تعدو عشرة اشهر حتى يكون هناك متسع من الوقت للرياضة البدنية والعلاج العقلي . والالعاب كما لعاب على اختلافها تكسبهم الفائدة العقلية التي تسهل المساعدة على تحقيقها

هذا مع اننا نشير الى ان يكون بكل فرقة عدد من الاطفال يتراوح ما بين عشرة وخمسة عشر

التأديب بالمهر

ان ماضي خبرتنا بأمثال هؤلاء يشجعنا كثيراً على ان نقرر ان استعمال العقوبات البدنية مما يكون سبباً قويًّا في اضطراب اعصاب امثال هؤلاء الاحداث بل يزيدهم هياجاً وتمرداً ونرى ان خير الوسائل لذلك ان يكون النظام التأديبي مؤسساً على العلاج العقلي والنفسي وتقويم الاخلاق

وحريٌّ بنا ان نعرض الى ما قرره الاستاذ الدكتور « هنري جودار » H. Goddar الذي ظلّ سنوات عديدة رئيساً للبحث العلمي العملي للاحداث المجرمين في ولاية « اوهيو » Ohio بالولايات المتحدة الاميركية في مؤلفه « الجريمة عند الاحداث » ص ٣ ما ترجمته « وها نحن اولاء كدنا نصل الى ذلك اليوم الذي يثبت فيه ان للامراض على اختلافها جسمية او عقلية أثرها البين في ارتكاب الجرائم ضد الجماهير الهادئة الآمنة ولو وفقنا الى فحص الحالات العقلية والجسمية لجميع الناس لتبين لنا ان الذين في حالات غير طبيعية هم ادنى الى اقتراف الجرائم من سواهم وتلك حقيقة لا تحتمل الشك والريبة »

ولقد برهنت المباحث العلمية العملية على ان عقلية هؤلاء الاحداث غير طبيعية في تكوينها وربما كان بهم مسٌّ من الجنون وإن هذا يتجلى لكل من كان ذا خبرة واسعة وملاحظات دقيقة عن حالات امثال هؤلاء الاطفال ضعاف العقول الذين يقترفون أبشع الجرائم بدون قصد او سابق تفكير

ولعلي اكون قد ألممت في مقالي هذا الى ما ينبغي نحو احداثنا المهمل وصغار المجرمين ضعاف العقول وما يجب ان نسلكه من طرق الاصلاح والوقاية توصلاً لغاية السامية والمرمى النبيل في خدمة الانسانية وصوناً للهيئة الاجتماعية مما عساه ان يلحقها من الآثام والخسارة الجسيمة مما يكون في الامكان تلافيها